ما حدث

أحمد محي الدين

ما حدث / قصص

أحمد محي الدين

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أحمد منتصر

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٦٥١٨

ما حدث

قصص

أحمد محي الدين

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع



مشهد موت

بعيدًا، وازيتُ السيارة بالرصيف، إذ لم أتمكن من إدخالها شارعنا الذي ازدحم فجأة بالبشر، الكثير من البشر. حاولتُ تفقد الأمر بعيني وأنا أتجه ناحية المنزل، فلاحظت أنهم شباب جميعًا، اغتظتُ.. فسلوكيات الشباب غريبة، ومقلقة.حاولتُ تبين إن كانوا يحتفون بفوز فريقهم للكرة، لكن وجدتُ الحزن باديًا على الوجوه، بل ويبكي بعضهم بحرقة.. ظننت أن حدثاً جللاً أصاب البلاد، لكني لم أهتم بسؤال أحد .

دلفتُ إلى مدخل العمارة محتميًا بها من حرّ الظهيرة، فوجدتُ ابنة البواب الصغيرة متسخة الفم واليدين تأكل سمكة، كان منظرها كوميديًا جدًا ، ابتسمتُ لها :

- إزيك يا عاليا ؟

- كويثة يا أثتاذ .

- بتاكلي إيه أومال ؟

– تمكاية مغلباني قوي .

ضحكتُ ضحكة قصيرة.. طفلة لم تتعد أعوامها الأربعـــة، وتبدو عليها البراءة دومًا .. سألتها :

– أومال إيه الزحمة إللي بره دي ؟

أجابت بفم ممتلئ :

– عيـيل ثغير قد كدهو ، مات .. ومثتنيين يودوه القرافة .

– حد من العمارة هنا ؟

– لا من الشارع إللي جنبنا .

سعدتُ لأنني لن أرتبط اليوم بواجب عزاء ، وصعدتُ مخلّفا الطفلة مع سمكتها .

نزلتُ وقت المغرب ، فتذكرت كل شيء عن حواري مـــع (علياء) حين وجدتها من جديد في مدخل البوابة، مهندمـــة، تتحرك كثيرًا .. ابتسمتُ لها وحييتها .

– أهلاً يا أثتاذ .. شوفت إللي حثل ؟

– حثل إيه بقى يا ثتي ؟

ضحكتْ ، وأجابت :

– الواد الثغير لثة ما جاش عشان يروحوا القرافة .

– يا سلام .. وإنتي شاغلة بالك ليه ؟

– مش شاغلة، بث عشان الذحمة دي تروح بقى، عايـــذة ألعب على الرثيف التاني مع العيال .

– مش لازم لعب إمارده ، خليها بوكرة وخلاص .

قالت هازة رأسها باستسلام :

– طيب .

تركتني بعدها ودخلـــتْ الغرفـــة المخصـــصة لـــسكنهم ، فخرجتُ وسط الزحام متجهًا إلى سيارتي .

طوال المسافة التي قطعتُها حتى السيارة ، مررت بالعديد من الشباب الأقل من عشرين عامًا يبكـــون ، منتـــشرين علـــى الرصيف يبكون كأن الذي مات أخو كل منـــهم أو أمـــه.. تعجبت من هذا التصرف الجماعي، وانطلقت بالسيارة.

عدت في العاشرة ، لم يقلّ تكدس الشباب ، بل خيّل لي أنه ازداد. صففتُ السيارة بعيدًا وترجلتُ ناحية المـــترل، لا أدري سبب كل هذا الوقت الضائع من أجل شخص مات.. كـــان يتوجب دفنه سريعًا لينقضي الأمر .

فجأة وبينما أمرّ بالوجوه العابسة ، تعالى صـــوت ســـارينة الإسعاف المميزة، نهض الجميع من على الأرصفة ومن الشوارع الجانبية وبدأوا يتحركون باتجاه الشارع الرئيسي، تعالى كذلك صوت عويل النساء وتقريع الرجال لهن .. ظهـــرتْ ســـيارة

(تحت الطلب) ثم توقفت بمحاذاة المسجد الذي لم يغلق أبوابه رغم انتهاء صلاة العشاء منذ فترة، فتحوا الباب الخلفي للسيارة وأخرجوا نعشاً.. تعالى بكاء الشباب، وهم يلتفون حول النعش.

وقفتُ أتابع كل هذه الأحداث بدافع الفضول، أنا لا أعرف الميت ولا أكن له أية مشاعر ، لم أكن أعرف أي معلومات مفيدة ، ما ذكرّته لي ابنة البوّاب لا غير.. فقط جذبني التجمع واقتراب نهاية الأحداث عندما سمعت صوت السارينة .

كنت بعيدًا ، وفجأة اختفى المشهد خلف الشباب المقبلين على السيارة السوداء، ثم سمعت صياح شخص يردعهم، ويأمر السائق بإعادة الخشبة إلى السيارة.. تفككتْ مساحة استطعت أن أرى عبرها شيخًا يوجّه السيارة السوداء ناحية القبلة ، وأعلن أنه سيؤم الناس لصلاة الجنازة في الشارع .

في هذه اللحظة قررتُ أن أصلي معهم ، أسرعت ناحية العمارة وتوضأت في غرفة البواب ، ثم خرجت من جديد.. فرصة لأن أجد مثل هذا العدد يصلي عليّ لاحقاً .

لم نكد نفرغ من الصلاة ، حتى عاد عويل النساء ، يصحبه زجر الرجال .. جاء واحد من الخلف يسألني :

– هو فيه إيه يا أستاذ ؟ مين إللي مات ده ؟

– مش عارف .

تطوع أحد الشباب لإفادتنا بأسى :

– ده واحد زميلنا ساكن في الشارع ده ، مات وهو بيترل من القطر قبل ما يقف ، مش عارفين مات قبل ما يترل ، يعني سكتة قلبية، ولا وقع والقطر داس عليه !.

– وكل الولاد دول صحابه ؟

– أيوه ، كلنا زمايله في المدرسة وجيرانه من البيت القديم ، وفيه ناس قرايبه طبعًا .

– وليه واقفين طول المدة دي ؟

– أصله مات في إسكندرية ، وكان بيتغسّل هناك .. والإجراءات بقى .

– لاحول ولا قوة إلا بالله .

يبدو أنه كان شابًا رائعًا ليجتمع من أجله كل هؤلاء لكل هذا الوقت .

بدأتْ السيارة السوداء في التحرك ، ولمحتُ امرأة ترتدي السواد تدق على صاجها بقوة ، وشرعتْ تصرخ منادية على ابنها.. حاول الشيخ ردعها وحاول رجل آخر – قد يكون زوجها – أن يهدئها، وبدأ السائق يزيد من سرعة السيارة ، لكن تشبثت الأم بصادم السيارة الخلفي، فجرّها السيارة قليلاً قبل أن ينادي الناس على السائق ليتوقف .

شعرتُ لحظتها كأن الميّت شخصاً عرفته .. ولمـــا دخلـــت العمارة ، قابلتني علياء :

– مالك يا أســـتاذ ؟

– مالي إزاي يعني ؟

خرج صوتي متقطعًا مبحوحًا ، لم أكن لأحظت الغـــصة في حلقي :

– إنت بتعيّط آهو .

لم أكن قد لاحظتُ هذا أيضاً .



ضاع المفتاح .

– قلتها وأنا أتلفت بعيني في الأرض ، سألني وهو يبحث معي :

– أين ضاع ؟ ما شكله ؟

– لا أدري ، الآن اكتشفت أنه ضاع .

– أما توجب عليك استخراج نسخة منه ؟!

– نظرت له مندهشا.. توقفت عن البحث وقلت :

– ربما.. عندك حق ، كان لابد أن أستخرج نسخة من المفتاح ، المفتاح قد يضيع فأجد نسخته .

– صمتَ قليلاً بينما هو يبحث ، ثم استطردتُ :

– لابد أن أستخرج نسخة من البطاقة إذا .. ورخصة القيادة ، والكارنيه .

- ...

- والسيارة كذلك ، لابد من استخراج نسخة عليها.. والمنزل .

- نظر ناحيتي باستغراب ، فأكملت بهدوء :

- هل تدري ؟ كان على أجدادنا استخراج نسخة من الوطن ، في حال ضياع النسخة الأصلية .

في أروقة البيت الأبيض



قلب السيد بوش شفته دون حاجة، وهو يلوي رقبته ناظرًا لفم وزير دفاعه الطويل الذي كان يقول :

– يمكننا إفناء هذه الدولة بضغطة زر يا سيدي .

– هز السيد بوش رأسه نفيًا ويداه معقودتان خلف ظهـــره وهو يسير ببطء قائلاً :

– لا يكفي .

– مرني إذن سيدي الرئيس .

– فك الرئيس واحدة من ذراعيه يحركها دائريًا وهو يقول :

– قط وفأر .. نتسلى قليلا .

أومأ الوزير برأسه وتابع سيره في صمت ، بينما عاد الرئيس ليقلب شفتيه من جديد .

في حجرة متفرعة من أروقة البيت الأبيض ، جلس وزيـــر عربي مسئول محني الرأس أمام مكتب السيد بـــوش، وكانـــت

شاشة عرض تظهر عليها مشاهد جثث القتلى ، تجرأ العـــربي بقوله :

– انظر.. انظر يا سيدي ، ها هي الرقاب المقطوعة تـــشهد على فداحة الأمر .

عدّل الرئيس من وضع ظهره الملاصق لظهر الكرسي بالتقدم والاستناد على مرفقيه ، قلب شفته ثم قال :

– هذه الرقاب تشهد زورًا .

خفض الوزير رأسه أكثر عاجزًا عن الرد مفحمًا ، ضـــغط الرئيس زرًا دلف على إثره أحد الواقفين على بابه :

– اصطحب السيد إلى مكان تطيب له الإقامة فيـــه ، إنـــه مواطن أمريكي درجة ثانية منذ الآن .. مفهوم ؟

لم يرُد القادم و لم يومئ أو أي شيء، فقط اصطحب العربي وخرجا من المكتب .

*

في حمام متفرع من أروقة البيت الأبيض ، كـــان الـــرئيس الأمريكي مع واحدة لا ترتدي شيئا تتكلم بلغة ليست إنجليزية، ولكنه لم يكن مكترثاً بحديثها .

*

في رواق رفيع من أروقة البيت الأبيض ، وقف الرئيس على مدخل قاعة الاجتماعات يطالع اللمسات الأخيرة للخطة المقترحة لإبادة كل القرود وفصائلها (شمبانزي - نسانيس - غوريللات - إلخ ..)، وكان آخر تعليقاته قبل بدء الاجتماع : " جماعة الرفق بالحيوان ، يجب إقناعهم أن القرود ليست من الحيوانات.. أي أنها ليست من اختصاصهم في شيء ، فليركزوا مع البطاريق قليلاً .. مفهوم ؟ " .

*

– في قاعة الاجتماعات المتفرعة من الرواق الأبيض للبيت الأبيض، صاح أحد الموجودين بغضب فور انغلاق الباب وجلوس الرئيس على كرسيه :

– أنت لا تنفّذ ما اتفقنا عليه يا أحمق .

– تباينت الأصوات وهو يتابعها بصمت وانكسار :

– ما أشد غباءك .

– ستقضي على أمريكا بتصرفاتك الفردية .

– أنت لا تفهم شيئا ، لقد أمرناك بألا تفكر.. نفذ فقط .

نهض أحدهم باتجاهه وصفعه على مؤخرة رأسه قائلاً :

– ولد شقي .

قال السيد بوش بصوت واهن :

– آسف آسف ، ولكن فيم كل هذا ؟

– العراق يا أبله .

– هل رأيت ما فعلته ؟

– هل تعرف كم أسرة أمريكية غاضبة ؟

– أنت تجذب العيون إلينا ، عيون الشعب الأمريكي .

*

– عند ماكينة التصوير أسفل الصورة الكبيرة في واحد من أروقة البيت الأبيض، وقف قائد الجيش ينسخ صورًا لأسلحة نووية ، سأله السيد بوش الواقف بجواره :

– أين توجد هذه الأسلحة ؟

– كوريا الشمالية ، ولكننا سنقول أنها ما وجدناه في العراق .

– وكوريا هذه ، ألن تكف عن مشاغبتنا ؟

هز القائد رأسه وهو يجيب بتذمر :

– لو توقفنا عن استفزازها ، ستكون في حالها .

*

في الرواق الأحمر للبيت الأبيض ، كان الرئيس يقول لمرافقه بعصبية وهما يسيران باتجاه الحمام :

- لابد أن تظل الشعوب العربية مؤمنة بقوتنا، وأن يظلــوا على اعتقادهم بعجزهم أمامنا .. تصرف .

وبعد نصف ساعة ، في رواق أخضر بالبيت الأبيض ، قال السيد بوش :

– لبنان ، يجب أن نفعل شيئا بلبنان .. لابد أن تشعر الدول المجاورة لها بالخطر هذه الأيام .

– كما لسلفك أن فعل بالسودان، أليس كذلك ؟

– ...

– نستخدم دميتنا إذا .

– إسرائيل ؟

– هي ذي .

– حسناً ، اتفق معهم على خطة .

– وإيران ؟

قلب شفته وقال :

– لا شيء عسكري الآن ، ركز مع لبنان .

صمت قليلاً ثم أتبع :

– أريد سيناريو إيران على مكتبي إذا .

– أمرك مستر بوش .

في رواق أسود بالبيت الأبيض ، عند غرفة نوم السيد الرئيس ، تمتم وهو يدخلها :

– تبًا لهذه الغرفة ، لا أرتاح فيها أبدًا .. لابد من إجازة في تكساس لبعض الوقت .

– لتوك عائد من فلوريدا ، ما مسألة الإجازات معك ؟

كان صوت زوجته ، فقال وهو يخلع ملابسه ويقلب شفته :

– كل كاميرات المراقبة وأجهزة التنصت هنا تشعرني بعدم راحة .. كذلك السرير السخيف هذا.. غير مريح .

– تعال أزغزغك كي تنام .

*

– في رواق ذهبي بالبيت الأبيض ، سأل السيد بوش أحد مساعديه :

– ما أخبار (ناسا) ؟

– أرسلوا تقريرًا يا سيدي .. التقرير يفيد بأن المريخ تصلح للحياة الإنسانية .

قلب شفته وقال :

– فلنجهّز بيانا نعلن فيه ضم المريخ إلى ولاياتنا إذا .

ثم سأل :

– ما أخبار الكونجرس ؟

– جهزوا بيانا شديد اللهجة مرة أخرى لمصر ، بسبب هذا المغني .. (شعبان) .

– يا للتفاهة ، هل ينشغل الكونجرس بهيبته لعمل بيان شديد اللهجة من أجل إسرائيل السخيفة ؟ إنه سخف .

– سيدي الرئيس، هذه المرة تطاول المغني على أمريكا ذاتها.

قلب شفته من حديد واحمرت وجنتاه وهو يقول بعصبية:

– بيان شديد اللهجة هو أمر سخيف ، جهّز صـــاروخين نطلقهما على مصر في أقرب وقت .

– سيدي ، إنها مصر .

ثم مال المساعد على أذن الرئيس مضيفاً بهمس :

– مصر يا بوش .

سمع بوش هذه الجملة ، وبدأ في التشنج .

*

في الرواق الأخير بالبيت الأبيض ، قـــال وزيـــر الـــدفاع الطويل:

– أتباع بعض الدياناب يطلبون من آلهتهم صب السخط على أمريكا .

قلب السيد بوش شفته وتساءل :

– البوذيون ؟

– المسلمون يا سيدي .

قال بجزع :

– الإرهابيون ؟ تبًا .. إنهم يعبدون الله ، أمريكا لا تقدر عليه .

– ماذا ترى يا سيدي ؟

– أظن الله لن يؤذي أمريكا ، فهي تدافع عن نفسها وتحارب الإرهاب .

سأله الوزير بتعجب :

– هل تصدق ذلك حقا ؟

– لو لم أصدقه لما صدقه أحد .

أنوف طويلة



اجتمعت الزرافات طويلة الرقاب مع القرود الجالسة على فروع الأشجار .. كانت المشكلة أن الغابة أصبحت لا تطاق ، والحيوانات ليس لها كبير .. وبعد مشاورات ومداولات ، وتدخل الكثير من الحيوانات.. قرروا اختيار ملكا للغابة، يحكمهم ويحكم بينهم . ولكن ماذا كانت المعايير التي يجب وضعها لاختيار حاكم الغابة ؟

اعترض الأسد على مجرد الفكرة ومبدأ مناقشتها ، فهو ملك الغابة منذ زمن ، وليس لأحد إنكار ذلك أو تجاهله.. لكن زرافة حكيمة كانت له بالمرصاد ، فقالت له من علٍ :

– من نصّبك ملكا علينا ؟ البشر ! سحقا لهم، لَمْ يدسون أنوفهم الطويلة في شئوننا ؟.. نحن سنختار ملكنا بأنفسنا.

كاد الأسد يعارض ويناور ، لولا أن رأى نظرات تأييد للزرافة في عيون كل الحيوانات .

قال قرد حكيم :

- ما المعايير التي يجب وضعها لاختيار الملك ؟

رد الأسد :

- أن يكون قويًا .

قال الحمار بسرعة :

- بل يكون صبورًا .. كي يتحمل هموم الحيوانات ويقدّرها.

رد القرد الحكيم :

- و لم لا يكون ملك الغابة حكيمًا ؟!

قال الغزال :

- بل يكون الملك سريعًا .. كي يحكم بين الناس بسرعة ، ويعطي كل ذي حق حقه دون إبطاء .

ردت الزرافة الحكيمة :

- بل تحكم الغابة حيوان أنثى لا حيوان ذكر .

اختلطت أصوات الحيوانات :

- صح .

- خطأ .. هذه عنصرية .

– نحن لا نفرق بين الحيوانات وبعضها .

– القادر على الحكم يرشح نفسه .

– لابد أن نزكّي أحدنا ، وإلا فسيرشح الكل نفسه ويدلي بصوته لنفسه .

– فليأتِ صياد لينصّب أحدنا ملكا على الغابة .

– دعك من البشر يا أبله ، إنهم لا ينصبّون من يحكمهم هم.

حاول القرد تهدئة الجو المتوتر وخفض أصوات الحيوانات ، ثم قال :

– لابد أن يكون الملك مخلصًا للغابة .

صوت نهيق :

– لابد إذن أن يكون من أهل الغابة لا من غابة أخرى .

صوت فحيح :

– ربما يظهر أنه مخلص للغابة في حين أنه جاسوس لغابة أخرى .

زقزقة :

– فليحكم الغابة طائر يمكنه رؤية كل الحيوانات ويطّلع على أحوالهم .

كان قرد صغير يدحرج جوزة هند على فــرع شــجرة ، فسقطت منه على رأس الذئب الذي نظر لأعلى، واهتاج قافزًا محاولاً جذب القرد لتأديبه .. فأخذتْ الحيوانات تردعه وتبعــد القرد الصغير وهو يبكي، فاحتضنه القرد الحكيم وهو يقول :

– يا بُني .. أنت قرد وجدّك قرد ، فلا تشاكس الأقوياء ما لم تكن أقوى منهم ، ولا تشاكس الأذكياء ما لم تكن أذكــى منهم .

أشلاء كرامة

فجأة شعر بالأصوات تأتي من عمق بعيد، ثم لم يعد يسمع شيئا على الإطلاق رغم حركات شفاه كل المحيطين.. أغمض عينيه واتجه خارجًا من البحر، شعر بلمسة يد علـــى كتفــه، التفت ونظر إلى صاحب اليد الذي تتساقط منه قطرات ميـــاه محركاً شفتيه، فاستنتج ما يقول .. " ماذا بك.. ماذا بـــك؟ " أجاب " أذني.. لا أسمع"، ابتسم صديقه وهو يقول محركا يديه لأعلى وأسفل.. لم يسمع، حاول يقرأ شفتيه، فاستنتج " اقفز.. اقفز".. قفز مرتين، شعر بسائل دافئ يخرج من أذنيه، تحسسهما خشية أن يكون دما.. وبدأت الأصوات تعود.

عظُمتْ كل الأشياء دون مقدمات، لم يكن مـــبللا ، بـــل يرتدي ملابس جافة صغيرة.. هو أصبح قزمًا، ارتعـــب.. راح يركض بلا هدف، سمع أصوات طلقات وقصف .. لم تكـــن هناك أصوات آدمية، لا صياح ولا حتى همس.. ركض أكثر، حاول أن يجد مكانا آمنا.. تلقفته يدان كبيرتان ورفعتاه عـــن

الأرض، "من يكون صاحبهما ؟" صرخ.. فكممتْ فمه واحدة من اليدين .. وحملته بعيدًا ، لكنه لمح التقويم على حائط متهدم (١٩٧٥، ... ريل) كانت الورقة ممزقة .

أخذ يحلم بأنه في البحر ، والأصوات تأتي من عمق.. " أنت عضو في حزب الله.. أنت لبناني.. بل أنت أكثر من لبناني، أنت حسن نصرالله.." ، تقلب في رقدته والأصوات تتصاعد من العمق " قانا.. قانا!!.. قانا!!!!!.."..هب فزعًا .. ركض وقد أصبح كبيرًا من جديد .

مبللا في عرقه، ليس قزمًا.. ليس طفلا .. ولم يعرف كيف يتصرف، كيف يصل إلى (حزب الله) فينبههم.. إنها (قانا) من جديد، لابد أن يحذرهم.. جدار مهدم، الرزنامة تشير إلى (٢٠٠٦ ،... ليو).. الورقة ممزقة على الجدار المهدم ، واستمر في الركض .

وقف راكعا يلهث بشدة ، أخذ يفكر في كيفية الوصول إلى (حزب الله).. هم لا يعلقون لافتة على مقرهم، ولا سمة مميزة لأعضائه المارين بالطرقات.. كلهم لبنانيون لهم أشكال اللبنانيين.

بدأ يهرول واللهاث لا ينقطع، حلم بيدين تحملانه إلى مأمن، لكنه أصبح كبيرًا الآن.. لا توجد أيدي بهذا الحجم .. كما أن على عاتقه مسئولية كبيرة.. (قانا) .

الفزع في عيون من يلاقيهم ، الغضب في عيون أخـرى ، الصرامة .. الإصرار.. التحفز.. المبـاني المهدمـة.. الـزرع المحروق.. أشلاء الجثث.. الدماء.. الفجوات الأرضية.. فوارغ الطلقات.. شظايا الصواريخ.. يهرول .

*

حول المائدة تجمعوا يشربون شاي الظهـيرة في الخـلاء، لم تردعهم أصوات الرصاص وجنازير الدبابات عن هذه العادة.. كانوا عرضة للهواء الطلق ، وحرارة الشمس.

أسرة ريفية في بلد لا تكف أصوات الحـرب فيهـا عـن إثارتهم.. فهم متحمسون دومًا لكـل شـيء، حـتى شـاي الظهيرة.. يتناولونه بحماس .

لم تتكون الأسرة من أب وأم وأولاد فقط.. بل هناك جـد وجدة ، وعمة عجوز تخطت سن الزواج، والأولاد ليسوا مـن نتاج تحديد النسل.. فهم كثيرون ، وكثيرًا ما يشاركهم بعض الجيران عادتهم هذه.

ذات يوم ، أثناء ممارسة نفس العادة، وفي جمع كـبير مـن الجيران، وصوت الحرب لا يكف، سقطت قذيفة على أحـد الأبناء الصغار فاختفى تحت الأرض، مخلفاً فجوة سـخيفة .. شهقتْ الجدة وصرخت العمة فزعة، بينمـا نهـض الـصغار يردمون الحفرة ليتمكنوا من الجلوس في المكان من جديد.

أخذتْ كل الألسنة تعزي وتدعو بالصبر ، أفصح الأب عن أنه صابر.. صابر حتى النهاية ، بينما لم ترد الأم على شيء، مكتفية بدمعتين .

بعد ذلك لم يعد الجيران للجلوس في الخلاء، عاودهم الشعور القديم بالخطر، في حين استمرت الأسرة على مبدئها .. وثقتها .

سمع الجيران بعد ذلك أن ابنا آخر لنفس الأسرة سحقته قذيفة ، وأن دماءه تناثرت على الطاولة.. وأن واحدًا آخر من الأبناء أخذ يركض بعيدًا.. يركض دون أن يلحق به أحد .

*

دومًا كان يكره الركض ، فهو يثير في نفسه تداعيات مؤلمة.. حاول تذكر الرقص الذي كان يمارسه في الملاهي مع رفقة الشباب.. الشطرنج الذي كان يلعبه بتفوق .. راغب علامة والصورة التي التقطها معه في إحدى الحفلات.. متاجر شارع الحمراء في بيروت التي يزورها كثيرًا .. كانت هذه بالنسبة له لبنان الجميلة .

لمح لافتة محروقة عليها كلمة (صيدا) .. لقد أصبح خارج حدود الجنوب.. أو ربما أصبح داخله، اللافتة ملقاة وسط الطريق ، والأشخاص يركضون في كل اتجاه .

تذكر (بنت جبيل - صُور - كفر جوز - الناقورة) كل المدن والقرى التي سافر إليها، كان تاجرًا يسعى ببضاعته في كل الأنحاء.. ومكث طويلا في أماكن لم يعرفها من قبل، له ذكرى ما في كل مكان.. (قانا).. ماذا كانت تقول (فيروز) عن الإسكندرية ؟

وقف راكعا يلهث من جديد ، رجل هرِم يمر محنيّ الظهر، أشلاء قطة ورماد أوراق تحترق.. يحاول العجوز الركض دون جدوى.. فتوقف وأخذ يتمتم " أين أنت يا حريري ؟ .. يا حريري.. " .. رجل شهد كل مشاكل لبنان، ولم يتمتع بهدوئها لفترة طويلة من عمره ، فمنذ نهاية الحرب الأهلية عام ١٩٩٠ حتى ٢٠٠٦ !! إنها أسبوعان في عمر الكهل .

عاود الهرولة.. " إسرائيل !!.. سحقا لها ، العرب !! لقد اخترعوا مبدأ التخلي، وسيحين دورهم بالتأكيد.. وقتها ستكون لبنان أقوى وأفضل، ولن تساعد أية دولة وقتئذ ".

وقف متحيرًا ينظر إلى الشمس العملاقة ، ثم راح ينظر في كل الاتجاهات، سار ببطء ناحية صوت (نانسي) ظهر فجأة، حاول البحث في الأبنية المحيطة المهجورة ، ينظر عبر الشقوق الواسعة.. رأى تليفزيوناً وحيداً تشاهده جثتان، اقترب وأخذ يقلب القنوات.. كانت الأخبار العاجلة على كل المحطات..

" مجزرة قانا ٢٠٠٦".. سقط أرضًا يطالع صور الأشلاء ، شعر بحرارة مفاجئة في المكان، حيث سقطت قذيفة.

قال لـــه (حسن نصر الله) :

– إننا نحاول لملمة أشلاء كرامة أهدرها العرب، لن يـــأتي الجان ليفعل شيئا لنا.. فهل تعاوننا ؟

– أعاونكم يا شيخ.. أعاونكم .

– لكنك لا تبدو شيعيًا .

وكيف أبدو شيعيًا أو غيره يا شيخ ؟ إنني لبناني على كـــل حال .

ابتسم الشيخ (حسن) مربتا على كتفه، قـــال وأصـــوات القصف بادية من بعيد :

أنت مناسب لـــ (حزب الله) .. يسعدنا وجودك بيننا .

ابتسم، شعر بسعادة بالغة.. كان يهتز من السعادة.. يهتز.. " أفِق ".. يهتز.. " أفِق"، نهض فاتحًا عينيه بفزع، نظر حولـــه فوجد رجلين مسلحين يعاوناه على النهوض ، حاول الاستناد عليهما.. لكنه لاحظ فقـــد واحدة من ذراعيه، انـــدهش.. ثم أدرك الأمر ، وصرخ .

صاح فيه أحدهما بصرامة، " أنت فقدت ذراعًـــا واحـــدة فقط.. البعض فقد حياته دون أي سبب، لمجرد أنهم لبنانيون..

انهض". وقف مذهولا تملأ الدموع عينيه .. تمستم " أريـــد أن أذهب إلى (حزب الله) ، أريد مقابلة (حسن نصرالله) " .

ردا عليه :

- وما شأننا بحزب الله ، لقد جلبوا الوبال على لبنان كلها.

- بل كانوا يلملمون أشلاء كرامـــة اللبنـــانيين .. إنهـــم يلملمونها .

- سِر .. اصمت وسر .

سار حزينا يتذكر كيف كان يسبح في البحر المتوســـط ، كيف كان يصعد جبال لبنان.. كيف كان يلتقط صور الآثار في (صُور) .. كل هذا بذراعين، تمالك بعد فتـــرة ، فحملـــه واحد على كتفيه دون التخلي عن السلاح، غاب عن الـــوعي من جديد .

- انهض يا بطل .

هز رأسه وهو راقد ، كان يحلم بذراعه .

- انهض يا بطل .

لم يفعل شيئا كي يصبح بطلا ، إذن فالحديث ليس موجهًا له .. ولكن من الجيد أن يرى بطلا ، فقاوم لفتح عينيه .

- مرحبًا بالبطل .. مرحباً بك .

كان الكلام موجهًا إليه، نظر إلى مكان ذراعه فوجد ربطة بيضاء على كتفه، ومساحة فارغة كبيرة بعـــدها.. نظــر إلى محدثه، رجل وقور يرتدي عباءة سمراء ، لـــه لحيـــة متوســـطة الطول.. أبيض البشرة، هادىء العقيرة، ألثغ في حرف الـــراء، بشوش.. قطب حاجبيه محاولا تذكر أين رأى هذا الشخص . ربت الشخص على كتفه وهو يقول بينما صوت الأذان يصدر من بعيد:

– لقد عرفنا ما فعلته ، أنت مناسب لـــ (حـــزب الله).. يسعدنا وجودك بيننا .

وحش خرافي بشنب

كثيرون هم الناس بحق، وشديدة هي حرارة الجو ، أتـــنفس بصعوبة .. أبحث بعينيّ في كل مكان دون جدوى، لا أثر لأمي على الإطلاق في محلات الذهب أو الملابس، ولا هي تبحـــث عني هنا بين أقدام الناس .

– ظريف هذا الدبدوب .

قالـــها واحد لا أعرفه وهو يداعب الدمية التي أحملـــها ، المشكلة أنه ليس دبدوباً ، بل أرنوب .. فقط هو بـــنيّ اللـــون وليس أبيضاً .

– هذا أرنوب يا عمو .

نظر نحوي غاضبًا وهو يبتعد . خِفت من شكلــــه وهـــو ينظر إليّ ، وافتقدتُ أمي أكثر .. أكملتُ سيري المتردد وأنـــا أطل برأسي في كل المحلات.. بعضها مكيف الـــهواء يـــصيبني بالانتعاش ، لكنني أجد وجوهًا من داخلـــها تنظر إليّ مقطبة؛ كأنه محرّم عليّ دخول هذه الأماكن وحدي.. مع أمي يهتم بي

الجميع ويداعبونني ويعرضون عليّ مشروبًا في بعض الأحيان ، كانوا يكثرون من التحدث معي ويسألون :

- هل دخلت المدرسة ؟

- ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر ؟

أشياء كهذه يبدون من خلالـها لطفاء ، لكن مـن دون أمي لا أحظى بشيء لطيف منهم .

- ماذا تريد يا شاطر ؟

قالـها أحد الرجال الطوال بفظاظة.. كدت أبكي وأنـا أركض مسرعًا بعيدًا عنه ضامًا الأرنوب إليّ بشدة ، ثم خشيت عليه من قوتي ، فأرخيت ذراعيّ قليلا .

جُبت الأماكن كلـها، شعرت بأني تائه .. كنت تعبًا و لم أشأ الجلوس قبل أن أعثر على أمي.. وجدتُ العسكري يـشير إلى السيارات بالتوقف والمرور، اتجهتُ إليه عبر الطريق محـاذرا السيارات.. سألته :

- هل يمكن أن تساعدني أيها العسكري ؟

لم يرد ، ظننت السبب هو صخب السيارات وضجيجها ، ففككت إحدى ذراعيّ من حول الأرنوب وجـذبت بنطلـون العسكري لينتبه إليّ ، أنزل رأسه ثم نهرني صـائحاً لأبتعـد ..

كان هذا ما يفعلـــه أبي مع أي كلب أو قط يتمسح في قدميه، يصيح به وينهره ليذهب بعيـــدًا ، خفـــت مـــن العـــسكري وركضت دون انتباه للسيارات التي كادت إحـــداها تقـــتلني بالفعل، استنتجت هذا من صوت صرير توقفهـــا ، ولكـــن لم أنظر خلفي ، وظللت أركض حتى شعرت بابتعادي الكافي عن العسكري .

لم أدرِ أي مكان هذا ، لا أعرف كيف أعود إلى البيت من هنا .. أنا أحفظ شكل المبنى الذي نسكن فيه، والمباني المجاورة، وشكل الشارع ، و محل البقال .. حتى الشجر الـــذي يحـــيط منزلنا أعرف شكلـــه .

أحفظ شكل كل أقاربنا وجيراننا .. جلستُ على الرصيف ألـــهث وأحدق في وجوه الجميع ربما أعثر على وجه أعرفه ، أنا أحفظ شكل البقال.. ضممت الأرنوب أكثـــر ، كانـــت عندي دمى كثيرة من الأرانيب والدباديب، لكن هذه الدميـــة الوحيدة التي كانت أرنوبًا يشبه الدبدوب في لونه .

ملأني إحساس سخيف بالقذارة ، العرق .. التراب والبقـــع المتناثرة على ملابسي!! ستغضب أمي لـــهذه البقع.. المزيد من عدم القدرة على التنفس بسهولة، هل توسخ الأرنوب أيضًا ؟

مر وقت طويل منذ الصباح ، أنا جائع جدًا وعطـــشان ..
المشكلة أن الليل يخيفني، حتى أن أمي تترك باب غرفتي مفتوحًا
حين أنام ليدخل منه ضوء قليل يطـــرد العفاريـــت ، أخـــاف
العفاريت بشدة.. وأمنا الغولة، وأبا رجل مسلوخة .. أخـــشى
أن يذهب كل هؤلاء الناس إلى بيوتهم وأبقى وحيـــدًا علـــى
الرصيف ، فيظهر لي الوحش الخرافي بشنب ليأكلني .. سيأكل
الأرنوب أولا، ثم يأكلني .. ليته يأكلني أنا، فالأرنوب لم يفعل
شيئا سيئاً أبدًا ، الوحش الخرافي بشنب يأكـــل الأولاد الـــذين
يفعلون أشياء سيئة ، أرجو أن تأتي أمي قبل أن يأتي الوحش ..
أرجو ألا تأتي أمي حين يأتي الـــوحش ، فأنـــا لا أريـــده أن
يأكلـــها ، هي لم تفعل شيئا سيئا أبدًا.

السادات / التحرير



لم تبدأ رحلتي منذ خرجتُ من منزلي في مدينتي الصغيرة، بل بدأتْ عندما نزلتُ درجات السُلم المؤدية إلى مترو الأنفـــاق في العاصمة.

مكتبات في ردهات تحت الأرض، ورجال الأمن المركـــزي يكوّنون مربعًا ممتلئا .. اتجهتُ إلى شُباك الحجز الأقل ازدحامًا وطلبتُ من العامل تذكرة (التحرير)، فطلب بدوره خمـــسة وسبعين قرشا.. بحثتُ بعيني عن المكان المؤدي للمترو فوجدت ماكينات كثيرة في اتجاهات مختلفة ، ليس الأمر هينا بالنـــسبة لأول مرة إذا.. سألتُ رجلاً مارا :

- لو سمحت .. أركب التحرير منين ؟

أشار في صمت إلى ناحية معينة اتجهتُ نحوها ووقفتُ أمام إحدى الماكينات المصطفة لا أفهم ما عليّ فعلـــــه.. نظـــرتُ حولي حتى وجدتُ شخصا يضع التذكرة في الماكينة فتأكلـــها حتى يمر عبر الحاجز ليستردها مرة أخرى .. فعلـــتُ مثلـــــه، وهبطتُ سلالم أخرى .

وقفتُ منتظرا كالآخرين وأنا أتساءل إن كان هذا هـــو المكان الذي قُتل فيه الصديق الواشـــي بـــــ (منتـــصر) في (الـــهروب) .

فتاة وشاب يتهامسان على أريكة خشبية .. خريطة كبيرة تعلوهما ممتلئة بالخطوط الحمراء والخضراء والزرقـــاء ، مـــا إن اقتربتُ من الخريطة حتى أعلن المترو عن قدومه بـــنفير عـــالٍ امتزج بصوت محركاته وصداها تحت الأرض لتنـــتج أشـــرس ضوضاء على الإطلاق .

تكررتْ كلمة (سيدات) كثيرا على عربـــات المتـــرو ، فانتقيت واحدة لم تحمل هذه الكلمة، فأنا أفهـــم مثـــل هـــذه الأمور. دخلتُ العربة واكتشفتُ أنه كـــان يتحـــتم علـــيهم تخصيص عربات للرجال لا النساء .

ها هي خريطة مصغرة على الجدار الداخلي للمترو وقفـــتُ أتأملـــها وعجبتُ للمهندس الذي صمم هذه الأنفاق.. إنـــه ليس واحدا ولا شك، لابد أن يكونـــوا مجموعـــة مهندســـين شديدي العبقرية.. فأنا لا أفهم شيئا من خريطة الأنفاق المبسطة هذه ، فما بالنا بمن صنعوا الأنفاق نفسها ؟!

كدتُ أنكفئ عند فرملة المترو ليقف في المحطة ، تُرى هل هذه هي (التحرير) ؟ لم أجد حرجا في سؤال أحد الركاب :

- لو سمحت.. التحرير المحطة الكام ؟

- انزل السادات .

- بس أنا عايز أنزل التحرير .

- التحرير اسمها السادات يا أستاذ .

" هل يعلم الرئيس الراحل بهذا الأمر ؟ " .. هكـــذا جـــال بخاطري .

- شكراً .

أظنه أكبر من أن يوضع اسمه على محطة متـــرو.. إنـــه .. كلا.. ولكن.. لقد فهمت ، التحريـــر هـــي الـــسادات لأن السادات هو من جلب لنا التحرير ، هكذا تسير الأمور هنـــا إذا.

توقفنا بعد أن كدتُ انكفـــئ في محطـــة قـــرأتُ فيهـــا (السادات).. نزلتُ متزاحما كما صعدت مزاحمـــا، ورأيـــت الجموع تتجه نحو سُلم فاتجهت معهم وصعدت.. الماكينـــات مرة أخرى، هذه المرة لا أحتاج لمعرفة مـــا علـــيّ فعلـــه.. أطعمتُ التذكرة للماكينة وعبرتُ الحـــاجز و... صـــمت .. هدوء .. لصوصية .. لماذا لم تخرج التذكرة؟!!

وقفتُ أتابع عابري الماكينات لأجدهم لا ينتظرون خروج التذكرة من معدة الماكينة مرة أخرى ، كلا .. لقد فهمت ..

في المرة السابقة كنتُ سأحتاج التذكرة للخروج ، هذه المـــرة أنا خارج أصلا فلن أحتاج إليها .

الكثير من المخارج والكثير من الـــسلالم .. تبـــا ، إنهـــم مهندسون من متاهة (علي بابا) . لافتـــات تحمـــل كلمـــة (خروج) بلــُغتين .. يا للتبذير .

انتقيتُ مَخرجا واتجهتُ ناحيته وصعدتُ درجاتـــه حـــتى وجدتُ نفسي في الشارع ، بحثتُ حولي لأجد عدة مخـــارج أخرى، الأمر مختلف من أعلى.. هاهي الجامعة الأمريكية بجوار مخرج آخر، تبا .. الجامعة أقرب للمخرج الآخر .

عبرتُ الميدان والطريق وسرتُ بضعة أمتار حتى أصـــل إلى مدخل الجامعة سألني رجل الأمن على البوابة:

- إلى أين ؟

- أرغب في الاستفسار عن الدراسات العليا بقـــسم إدارة الأعمال .

- بطاقة تحقيق شخصيتك من فضلك .

ناولته البطاقة لأسلوبه المهذب في الحديث .. لا أكثر :

- المكتب رقم ٣٥ .

- والبطاقة ؟

- تستردها عند الخروج .

- لا بأس، فهي بلا شك في أيدٍ أمينة .

سرتُ أبحث في الأرقام عن (٣٥) وأنا أشــاهد بــشرا لا أجدهم سوى في الأفلام الأجنبية؛ لبساطة ملابسهم وحقائبهم الصغيرة المعلقة على ظهورهم، فتاة تتدلى من ظهرهــا حقيبــة بحجم حافظة نقود رجالي، هل يستعملون الكتــب في هــذه الجامعة ؟! شباب من الجنسين بكل الألوان، والإنجليزية تتنــاثر من حولي وكأنني في فيلم أمريكي. ثم وجدتُ رقــم (٣٥) ، صعدتُ درجتيّ سُلم ودققتُ الباب ثم دخلتُ لما لم أتلق رداً.

مكان بارد يختلف عن جو أغسطس بالخارج وفتاة مهذبة بملامح مصرية تبتسم وهي تسألني بالإنجليزية :

- أي خدمة ؟

- أرغب في الاستفسار عن الدراسات العليا حيث أنــني خريج تجارة .

تحدثتُ بالعربية فردت بالإنجليزية تشرح المجالات المتــاح عمل دراسات فيها والتقديرات الواجب توافرها لكل مجــال، وإلا فيجب عليّ أداء معادلة للتأهل.. هذا ما استنتجتــُه من حديثها بشكل عام ولكن الأمر يحتاج إلى ترجمة تفصيلية، ومن

الأفضل أن أستمر على اللغة العربية لتظن أنني من المتمسكين بلغتهم مهما كانت الظروف :

– هل يوجد مطبوع بهذه الأمور ؟

ناولتني ورقة فخمة ، شككتُ أنه يمكنني الاحتفاظ بها، ولكن بدا أنه يمكنني ذلك .

– أتمنى تكون معانا إن شاء الله .

قالتها مبتسمة بالعربية ، وأرجو ألا تكون قد فعلتْ ذلك لتوضح أنها (فقستني)، بل تكون حسنة النية فعلا .

ذكرتني هذه الفتاة بالسيدة المسئولة عن نفس الأمر في الكلية التي تخرجتُ منها، كان الأمر مختلفاً تماما، له نكهته البغيضة التي يصعب علينا تقبل غيرها بسهولة.

– ميرسي .

بالطبع كان لابد من استعراض بعض المعلومات بعد كل شيء، ألقيت بالكلمة وخرجتُ من المكتب .

خرجتُ من المبنى من حيث لم أدخل ، ولكن لا يهم فهاهو سُلم يؤدي إلى المترو هبطتُ درجاته الكثيرة على الفور ، واتجهتُ ناحية شباك التذاكر و ... تبا ، بطاقتي !!

صعدتُ من حيث لم أنزل ورجعتُ إلى الجامعة أبحث عن المدخل الذي دلفتُ منه أول مرة حتى تعرفتُ على شكل

الحارس الذي أخذ بطاقتي ، وبعد كلمات قليلة استردها ، ورجعت إلى شباك التذاكر و ...

- تذكرة (رمسيس) لو سمحت .

ركبتُ المترو في عربة (ليس للسيدات) مليئة بالكثير من السيدات، وتسمرتُ أطالع أسماء المحطات أمام الخريطة .. أسماء غريبة بحق ، محطة اسمها (المظلات) .. إنها كلمة أقرؤها في ترجمات الأفلام الأجنبية فقط .. هذه محطة (السادات) حيث كنت ، أين محطة (رمسيس) إذا ؟

- لو سمحت.. رمسيس بعد كام محطة ؟

- انزل مبارك .

- !!! .. شكرا .

أخذتُ أطالع الخريطة وأنا أراجع ما توصلتُ إليه قبلاً من ربط اسم (السادات) بـ (التحرير) فما هو الـ ..

- لا مؤاخذة يا بني .

كانت سيدة قد اصطدمت بكتفي وهي تمر لا أدري من أين إلى أين، فتابعتها حتى توقفتْ أمام باب العربة .. لاشك أنها ستنزل بعد أول انكفاءة قادمة ، وكانت الانكفاءة في محطة (رمسيس).

---

* فيلم من بطولة احمد زكي

جورب جديد



لم تكن الملابس – التي اشتريتها من سوق الملابس المستعملة يوم الجمعة – سيئة أبدًا ، بل تعطي انطباعًا بأنها جديدة بالفعل ، وهي بالنسبة لي جديدة.. قميص وبنطلون وحذاء وملابس داخلية، إلا الجوارب التي قررت أن تكون جديدة حقاً . هكذا أحب أن تكون جواربي لم يرتدِها من قبلي أحد، ولا حتى لمرة واحدة.. المهم أن الملابس الجديدة أعطتني إحساسا بأني شخص طازج ، ومنحتني ثقة بالنفس لا حدود لها، كنتُ أشعر بأني بطل إغريقي مفتول العضلات.

في الصباح، بعد ليلة طويلة من أحلام البطولات وتوقعات الحصول على مرادي من أول دقة باب، بدأتُ أدور على الشركات والمحلات بحثا عن وظيفة، أية وظيفة.. كانت ملابسي الجديدة تبث فيّ أملاً عظيماً ، أمل ظل يتحجم حتى أوشك على الانعدام قبيل الغروب ، كل موظف أو بائع سألته عن وظيفة كدت أخبره بأنني " أرتدي ملابس جديدة ، لاحظ

أن الملابس جديدة .. الجورب تحديدًا ، إنني أرتـــدي جوربًـــا أخرجته من غلافه بنفسي ، امنحني وظيفة "، ولكن مع نهايـــة رحلة البحث ونهاية التعليقات المهينة أو الـــسخيفة ، سمعـــتُ آخرهم يهمس لزميلـــه :

– من يظن نفسه بملابسه التي ابتاعها من سوق الكانتو هذه!

شعرت أنني مغمور في عوادم السيارات.. تفحصتُ نفسي لأجد الملابس متسخة من الطين الناتج عن العـــرق الممـــزوج بالتراب ، ذلك التراب الذي يملأ كل شيء.. حتى الـــــهواء. والحذاء كأنما داس عليه قطيع من الماشية ، والجورب كانـــت لـــه رائحة .. رائحة كنت أظنها لن تصدر من هذا الجورب الجديد.. الذي أخرجته من غلافه بنفسي .

بسكويتة

دندن الأغنية العالقة بذهنه منذ فترة بينما يُعد شاياً .. " كان ياما كان .. كان فيه عصفور.. قلبه صغير.. ريشه قصير ... " *، أخذ يجمع بعض البسكويت في صحن ويجهز ورقة الشاي والسكرية والحليب في انتظار أن يتم الماء غليانه .. " قلبه صغير .. ريشه قصير .. حلمه يرفرف بره السور .. كان إنساااااان ..."، أعلن الغلاي عن انتهاء مهمته، فصبّ منه في الكوب وأضاف السكر والحليب ثم حمل كل شيء على صينية واتجه إلى غرفة التليفزيون .. "حلمه يرفرف بره السور..كان إنساااااان، من طين من نور..."، سقطت بسكويتة من الصحن على الأرض أثناء سيره ، فحدثها بمرح: " ليه كده يا بسكوتة.. إنتي صغيرة عشان تقعي كده ؟"، تذكر ابنة الجيران الصغيرة التي يدعوها " بسكويتة " ؛ لأنه يعدها لذيذة لجمالها ومرحها ، ثم وصل إلى حيث أراد .

جلس يقلّب خليط الشاي والحليب والسكر، ثم تناول بسكويتة غمسها في الكوب ورفعها إلى فمه سريعا، بحث بعينيه

عن الريموت حتى وجده، فشغّل التليفزيون .. انتظَر حتى يبرد الشاي أكثر وهو يدور في المحطات متمتماً .. "فيلم قديم .. أغنية رخمة.. أخبار ناس بتموّت بعض .. برنامج العاشرة مساء هييجي إمتى ؟.. أنا فاكر الفيلم ده " ، توقف أمام مشاهد فيلم أمريكي يتابع أحداثه حتى يتذكره تماما، "أيوه افتكرته خلاص".. وانتهت قنوات (الوصلة) العشرين دون أن يجد فيها ما يسليه ، فضغط على زر الريموت الأحمر وعاد للبسكوت.. "إيه الأخبار يا بسكوت ، زهقت ؟ هاكلك ماتقلقش، بس الشاي يبرد شوية .. كان يا ما كان.. كان فيه عصفور ... " رن جرس الهاتف فنهض .

انتهت المكالمة فاتجه من جديد ناحية الغرفة ، ولكنه لمح صورة الطفل الصغير الموضوعة على الرف، دائما يضع بجوار هذه الصورة أشياء كثيرة كي لا تلفت انتباهه ، فكلما لفتت انتباهه تذكر موقفا بعينه.. واكتأب .

*

وقت المغرب عاد الطفل من درسه ليجد بيته مليئا بالبشر ، لابد أن هناك خطب ما، تلقى كل أفواه الموجودين على وجنتيه ، طبطبة أيديهم على ظهره وكتفه، وأحيانا يتلقى ضمة قوية .. اجتاز طريقه حتى غرفة أمه الراقدة على السرير بلا حراك ، وهنا هرع أحد الموجودين بالغرفة ليجذبه خارجها ..

لم يذكر أحدهم أمامه كلمة موت ، ولكنه أدرك .. خبراتـه التلفزيونية جعلته يدرك، هذا دوما وضع الميتين حديثا.

مَشاهد الموت في التليفزيون تتجمع في ذهنـه .. شـخص مطعون بسكين ، يتحدث كثيرا وهو يترف حتى يتهاوى .. أو مضروبٌ بالرصاص .. أو حتى شخص يحتضر على سـرير ، لابد أن يقولوا أشياء أخيرة قبل النهاية .. نهض واتجه إلى الغرفة من جديد ، فظهر لـه أحدهم ليمنعه ، لم يعتـرض ولكنـه سأل:

– هي قالت إيه قبل ما تموت ؟

– قالت إنك ولد شاطر وبتسمع الكلام .

هنا غضب .. إنهم يعبثون به ، وهو لن يقبـل .. فكـرر بعصبية :

– قالت إيه قبل ما تموت ؟

– ما قالتش حاجة يا (خيري) ، ما قالتش حاجة .. ماتت وهي نايمة.

ذرف دمعته الأولى وبدأ يبكي ، بدأ يعيش حالة الفقـد .. بدأ يستوعب الأمر .

*

اكتأب وهو يكمل طريقه إلى الغرفة، ولكنه داس على شيء فقتلـــه.. نظر تحت قدمه فوجد البسكوتة ، انحنى يلملم بقاياها وهو يكمل تمتمته .. " كان بيدوّر .. ع اللي يخضّر .. قلـــب الناس القاسي البوووور " ، نسي أمـــر الـــشاي تمامـــا وبـــدّل ملابسه.. " كان يا ما كاااان ... قلب الحدوتة رق وحن.. ع البنوتة ف زمن المحن...".

قرر الخروج لجلب بعض الأغراض.. "زمن الناس في قلوبها وحوش.. زمن الغاب.. والناب.. ووشوش ..."، وأغلق وراءه باب الشقة ، ثم استدار يطالع اللافتة الصغيرة المثبتة عليه تحمل عبارة "مهندس / خيري مختار".

*

سمع همس الناس في العزاء ، " والواد الصغير ده هيعملوا فيه إيه ؟ " .. "الحكومة توديه ملجأ بقى".

أصبح يتيم الأم أيضاً ، وكان لا يعي ما سيحدث لـــه، ولا يعرف معنى مستقبل.. ولكنها السنون مرت ، مـــرت عليـــه وحيدا حتى اعتادت عليه الوحدة .. قليل المرح حـــتى أصـــبح الاكتئاب رفيقه .

*

" زمن الغاب والناب ووشوش .. تحزن غـــش وتـــضحك زور.. كان ياما كاااان...". "لابد أن هذه البنوتة في الأغنيـــة هي قريني في العالم الآخر.."، ثم ضحك للدعابة التي ألقاها على نفسه ، واستمر في ترديد الأغنية .

عاد من الخارج يحمل أغراضه في وقت المغـــرب .. صـــعد العمارة ليجد تجمهرا يملأ الطابق الذي يقطن به، وشقة جيرانه مفتوح بابها .. اخترق الجمع حتى وصل ووضع أغراضه أمـــام باب شقته، ثم اتجه ليرى ما بشقة الجيران .

دخل فوجد واحدة همس لـــ " بسكويتة " التي تبكي :

– دول كانوا بيقولوا عليكي إنك شاطرة وبتسمعي الكلام، ما تعيطيش بقى .

ذرف دمعته الثانية وهو يخرج من العمارة كلـــها ، كـــان يدرك أن " بسكويتة " لن تعود أبدا تلك الطفلة اللذيذة مـــن جديد .

---

* أغنية للشاعر / خميس عز العرب

في قلب الأحداث

تحسس الملابس العسكرية القديمة المعلقة في خزانته قبـــل أن يرتديها بصعوبة، تأمل بعدها نفسه أمام المرآة فلحظ البدانة التي نالت منه ، وقد أظهرتها الملابس بوضوح .

خرج محاولا الانتصاب في السير كسابق عهده، تتــردد في ذهنه واحدة من الأغاني الوطنية القديمة: " واللـــه زمـــان يـــا سلاحي.. اشتـــقتـــلك في كفاااحي .. انـــده وقـــول ... "، بينما أيادٍ عديدة تشير إليه مع همس كثير.. يدرك أن الجميـــع يسخرون من هيئته، ولكنه لا يأبه، شكلـــه المتهالك وجسده المترهل لا يناسبان السترة الضيقة.. لقد مـــضى زمـــن اللـــوم والعتاب والتذكير بالتضحيات من أجل الآخرين: " هم لن يعوا هذا أبدا، فهم لم يجربوه.. "، أدرك مغزى عبارة صديقه بعـــد عناء طويل عبر السنين.. وأخيرا وصل إلى القاعة، وبعد تحسسه كارت الدعوة في جيبه، أبرزه لرجل الأمن على البوابة.

اكتشف الحقيقة التي يغفل عنها كل عام ، هو ليس ضابطا في الخدمة العسكرية، فلا يحق لــه ارتداء الزي العسكري أبدا، اضطر للعودة إلى المترل مسرعاً لتبديل ملابسه بأخرى مدنية ، هذه المرة كانت مناسبة لقوامه، وكانت أبرز جملة في الكارت تلح عليه.: " يشرفنا دعوتكم لحضور الاحتفال بعيــد نــصر أكتوبر في قاعة.... "، المكتوبة بلون مذهب أنيق .

بدأ الحفل بالأغاني الوطنية الجديدة لــهذا العام، كل عــام يكتبون أغانٍ وطنية جديدة احتفالا بأعياد النصر، ولكنها أبدا ليست في قوةٍ وحماسة الأغاني القديمة، الأغــاني الــتي كتبــها مؤلفون ذاقوا مرارة الحرب وحلاوة نــصرها.. "يــا بركــان الغضب.. يا موحد العرب... " .

بعض الشباب يرتدون سترات عسكرية مزيفة ويحملــون بنادق مزيفة، و في حماسة مزيفة يتحركون حــول المطــربين بشكل استعراضي، لكن الجالسين حولــه ضباط حقيقيــون.. حقيقيون تماما، وملابسهم كذلك حقيقية، لكنهم ليسوا مــن الجيل القديم.

هو الوحيد الذي لم يفقد رفيقه الأقرب أثناء الحرب .. لقد شاهدا أشلاء الكثيرين من زملائهما، ثم جاء الموت، كان لابد سيأتي، وانتقى الموت صديقه منذ سنين خمس.. من وقتها تصل

لصديقه كل عام دعوة لحضور احتفالات النصر، وكل عام يحضر بدعوة صديقه، فهو لم تصله قط دعوة باسمه.

*

أيام وجوب استحقاقه لمعاش القوات المسلحة، لم يجد اسمه في السجلات.. خطأ ما حدث فأسقط اسمه، هو - رسميا - لم يكن يوما جنديا في الحرب، لم يحمل سلاحا، لم يقتل عدوا، لم يتراهن مع زملائه على من سيقتل أعداءً أكثر.. هو - رسميا - لم يُصب بشظية نزعها بيده متحملاً ألمها وربط مكانها قميص أحد الشهداء ليكمل المعركة، وبعد مناورات طويلة مع الروتين، أنقذته سجلات المستشفى التي تلقى فيها علاج من رصاصة اخترقت كتفه الأيمن، ومن نزيف غزير في الفخذ، وتم إعادة قيد اسمه في ملفات جديدة بلاستيكية.. ملفات لم تشهد زمن الحرب.

" صورة صورة صورة.. كلنا كده عايزين صورة... ".
أخذه الجيش من الحياة المدنية فور تخرجه ، أما بعد الإصابة، فلم يعد صالحا لهذا النوع من الحياة، أو غيرها.. فكان مصدر دخله الوحيد هو المعاش، ثم تزوج، وازدادت قيمة المعاش بارتفاع أسعار لوازم الحياة ، ولكنها زيادة غير متوازنة .

*

جلس في قلب أحداث الاحتفال، يحملق في الوجوه المتناثرة حولــه عساه يتعرف فيها على وجه قديم، كان يشرئب بعنقه بحثا عن الألفة في الوجوه، لكنه شعر- في النهاية - بوحدته في القاعة.. وحدة مشوبة بهواجس اختراق الرصــاص لأجــساد زملائه، وانفصال ساق واحد منهم عن جــسده...أصــوات القذائف وصرخات الألم وصيحات التعليمات وطرطشة دماء الرفاق على وجهه، مذاق التراب في الحلق الجاف ، ورائحــة الموت.. " إحنا الشعب.... " .

و في النهاية قضي الأمرعلى يوم عطلة رسمية في نفس الموعد من كل عام .

" ساكن في حيّ السيدة... "، لم يعش لحظة حب المراهقين ولا لمسة اليد المرتجلة على ضفاف النيل، كل ما حصل عليه هو زواج تقليدي.. زواج المعطوف عليه.. العاجز، ولكن وقتــها كان يظن أنه زواج البطل المنتصر .

- بابا، إحنا شـُــفناك في التليفزيون.

ابتسم وهو يردد هامسا :

- يا خسارة.. كان نفسي تشوفوني في الحرب .

الدليل

كنتُ بحاجة إلى دليل بالطبع، كل منا بحاجة إلى واحـــد .. بدوتُ بملابس الصيد وأدواته مضحكا، خاصة في الصور الـــتي سأراها فيما بعد، المشكلة أن الدليل يتعامل معي وكأنه خـــبير زمانه وأنني شخص في المرحلة الابتدائية عليه العناية به وتوجيهه كما ينبغي دون مناقشة، والأدهى أنه تولد بـــداخلي شـــعور بالخوف من تكسير أوامره أو التسبب في غضبه .

في منطقة نصفها أخضر إلى مرمى البصر ونصفها المـــوازي قاحلٌ إلى مرمى البصر سار الدليل في الجزء القاحل رغم القيظ، وبرغم أن الجزء الأخضر - بلا شك - يحوي بئرًا أو بحيرة قد نرتوي منها ، إلا أنني اتبعت خطواته في صمت.

لم ينتق الطرق السهلة أو قليلة الانحدار، بل كان يتسلق تبة أو هضبة مع أنني عندما أصبح على القمة - بعد مشقة - أجد أنه كان من الممكن سَلكُ طريق آخـــر منبـــسط ، ولكـــن في

النهاية هذه مهنته وهو يدرك ما يفعلـه ، بل ألـتمس لـه الأعذار كأن يكون بالطرق الأخرى أفاعٍ أو رمال متحركة !!

في النهاية تملكني التعب بعد اكتشافي أننا نسير بغير اتجاه البوصلة ، ولكن الدليل أفصح عن أنه يسير بالاتجاه الصحيح كما تخبره ظلال الشمس . ثم بعد جهد ووقت لم يكونـا في حساباتي قبل بداية الرحلة ، اتضح أنني أمام الأمر الواقع، وعليّ التعامل مع مجريات الأحداث بما يناسب شخصا بالغاً .. فأشرتُ إلى منطقة تظللها شجرة كبيرة ، وطلبتُ من الدليل نصب خيمتنا فيها ، ولكنه أشار إلى كهف قريب وقال إننا سنقبع فيه بعض الوقت.. وقبِلت .

في الطريق إلى الكهف ورغم الإنهاك ، قررتُ أن أفعل شيئا يدل على أنني أفهم ما يدور حولي ، وأن كل قرارات الدليل وفقا لأمور أفهمها.. يجب ألا أشعره أنني أدنى منه، أو أنه يتولى لجام الرحلة، قلت إننا بحاجة لحطب تدفئة قبل الصعود إلى الكهف بدلاً من النزول مرة أخرى ، ولكنه من جديد – بحكم درايته – أوضح أنه لا داعي للحطب.

ولـّى الغروب وانتشر الظلام ، فسألته :

– متى نصل إلى وجهتنا أيها المرشد ؟

رج الترموس بقوة ثم قال :

- بعد أن ترتاح قليلا يمكننا المتابعة .

- في الظلام ؟!!

سألته بدهشة ، فأجاب :

- وماذا في ذلك ؟

- الثعابين .. الحيوانات المفترسة .. كنت تسير على ظلال الشمس وها هي قد غابت ، قد نضلّ الطريق .

نظر إليّ والترموس في فمه ثم قهقه عاليا وسقط بعض من محتوى فمه على الأرض وهو يكرر بسخرية :

- قد نضلّ الطريق ؟! قد ؟!!

لا أدري سبب ضغطه على حرفيّ كلمة (قد) ، أو ربما أدركته بعد فوات الأوان .



شارفت السلالة على النفاد

دوّى صوت الطلقة ممزوجا بصهيل الألم وأنا أعبر البوابة الكبيرة، لم أكن نلتُ قسطا كافيا من النوم بعد اعتقال المتظاهرين لاغتيال الشيخ الهرِم .. استدعوني لأن أحد الأشخاص كان يتظاهر وحده في مكان آخر ، ولسبب آخر.. يحتاجون رأيي في اعتقاله أو إطلاق سراحه .

دخلتُ غرفة المكتب وطلبت استدعاءه بينما كانوا يتعاونون أمامي من خلال النافذة على حمل الحصان الميت.

ولج المتهم متورماً منهكا ، فعرفتُ أن الزملاء لم يدخروا جهدا معه ريثما أصل، سألته وأنا أطالع الملف الخاص به :

– إيه بقى اللي مش عاجبك وعامل مظاهرة عشانه ؟

أجاب بصوت واهن حاول فاشلا أن يبدو متماسكا من خلاله :

– الأسعار.. زادت ليه ؟

يتظاهر هذا الرجل من أجل غلاء الأسعار بينما يتظـــاهر الناس من أجل الشيخ الذي اغتالوه في فلسطين، إنه - وبحكم خبرتي - لأخطر منهم . فاكتفيتُ بحواري القصير معـــه ، ثم شمرت عن ساعديّ ونهضتُ باتجاهه مفكرا إن كانت الساحة الخلفية ستصلح لدفن الجـــثة .

المباراة



كنا في الملعب عندما هجموا علينـــا ، لم يكـــن " الآوت " مشكلة بقدر " الفاول " ، وكلما أدخلـــوا في مرمانـــا هـــدفا نظرتُ إلى حكامنا لأحدهم متظاهرين بالانـــشغال في أشـــياء أخرى.

حرف ألف

أشاعوا خبر مجيء مفتش من الوزارة إلى المدرسة، كاد الناظر يسير على أربع من أجل تجميل المدخل وتنظيف الأرضيات بينما صوته صارخٌ في محاولة منه للسيطرة على العمال غير المبالين بخطورة الموقف، كل هذا وأنا أشرح درس النحو للطلاب الشاردة أذهانهم .

كتبتُ جملة طويلة وطلبتُ منهم إعرابها في ورقة، وجلستُ أسترجع أحداث الأمس عندما كنتُ في مكتب المدير أطلب منه الانصراف مبكرًا ، حيث أخذ يدور بكرسيه الجلدي ثم وقف يعبث ببعض أوراق أمامه وصرّح لي بتأثر مصطنع :

- مفيش أذون .

لحظتها لا أدري لِمَ رأيته كحرف ألف تعلوه همزة سخيفة بخط رديء ؟ فخرجتُ من مكتبه ساخطا عليه وعلى المدرسة، بل وعلى الوزارة كلها .

دخل الناظر ومعه شخص وقور أشيب يرتدي سترة تقليدية بينما أنا جالس وبعض التلاميذ يكتبون في أوراقهم أشياء مــا، أظن أنه إعراب الجملة ، والتزم الجميع بالسكون عنــد هــذا الدخول المفاجئ، فصاح الناظر:

- قيام .

وكأنني تلميذ بدوري قمتُ معهم مرحبا بــالمفتش الــذي اكتفى بهزة رأس، وسار بين الطــلاب يــتفحص وجــوههم وكراريسهم. هتف الناظر :

- جلوس .

بالطبع لم أجلس ، وقررتُ القيام بدور المدرس الحقيقي :

- مين فيكم خلص إعراب الجملة ؟

كان المدير متوترا محيّ الظهر ولا أدري لَم شــعرتُ بــأن الــهمزة السخيفة تحته الآن؟.

تقدم أحد الطلاب النجباء القلائل في هذه المدرسة بورقته، فأخذتُ أقرؤها ثم علّقت :

- برافو عليك.. بس (في) حرف جر يا حبيبي مــش أداة جزْم .

احمرّ وجه الناظر في غيظ وهو يراقب ردة فعــل المفــتش الذي انشغل بوضع يده على كتف أحد التلاميذ في الــصف

الخلفي دون ملاحظة حواري مع ذلك النجيب، وسأل الولـــد الذي في يده :

– متى سقطتْ الدولة العثمانية ؟

تبا، أكلّ هذا من أجل مفتش دراسات !!.

إن هذا الناظر لأشدّ حماقة اليوم .

*

في غرفة المدرسين كانت إحدى المُعلمات تحكي بتقزز عن تصرفات الناظر الغريبة معها عند استدعائها في مكتبه لأمر ما، أو عند دخوله فصل تشرح فيه متابعا سير العمليـــة التعليميـــة بنفسه، وأقرت زميلة أخرى هذا الكلام عندما قالت أنه رجُل يتلوى عند رؤيته لأنثى وكأن به ضعفا تجاههن لا يخفيه.. كل هذا وصورة الألف المقصورة ترتسم في مخيلتي بوجـــه النـــاظر وحذائه الذي كان أسوداً وصبغه بالأبيض، ربما لنـــدرك أن أربعة أعوام جديدة ستبدأ على نفس الحذاء بلون جديـــد، ثم انتبهتُ للكراريس التي أمامي.

في نهاية اليوم استدعاني الناظر إلى غرفة مكتبه، ولما مثلـــت أمامه قال بلـــهجة هادئة وملامح لا تشي بشيء :

– المفتش معجبوش حال الطلبة عندنا، وشكلـــه هيكتب تقرير مش ولابد .

لم أفهم الكلام، وحاولت البحث عن مكـــان الـــــهمزة السخيفة دون جدوى.. فأي شخص لا تعرف مكان همزتـــه لـــهو شخص خطر . قلت :

– حضرتك جايبلي مفتش تاريخ في حصة عربي ؟

بدت الدهشة على وجهه وهو يسألني :

– هي الأسئلة اللي كان بيسألـــها دي مـــش في كتـــاب المطالعة ؟

قلتُ وقد انتفخت أوداجي بعض الشيء :

– مطالعة مين يا حضرة الناظر، بقولك تاريخ .

بدتْ شرارات الغضب تطل من عينيه وأخذتُ أبحث عـــن تكوّن الـــهمزة في أي مكان ولكنني لم أفلح ، بل ربمـــا لـــو تكونت واحدة لانسحقت تحت وطأة غضبه هذا.

أشار بيده ناحية الباب – متقمصا دور وزير التعليم – بمعنى الانصراف، و لم أكد أغلق ورائي الباب حتى سمعـــت صـــوت تكسير بالداخل.. صارحتُ نفسي متمتما :

– إن هذا الرجل خطير بحق .

خلاص - بح



استيقظتُ مترعجا يوم عطلتي على صوت ضجيج أشخاص وآلات حفر في الأرض الصغيرة الخاوية المجاورة لمترلي . خرجتُ من دفء السرير إلى الشرفة لأنظر الأمر.. وبدا لي أنهم يشرعون في إنشاء بناية جديدة حتما .

نزلتُ إليهم معنفا تسببهم في الإزعاج ، وكذا مستفسرا - بفضول - عما ينشئونه، فأجاب أحدهم باستفاضة :

- لا نبني شيئا ، بل نحن طلاب في كلية الآثار، وتوصلنا من خلال أبحاث ودراسات ومعطيات تاريخية، إلى حتمية وجود تابوت لأحد الفراعنة أسفل هذه البقعة الأرضية تحديدا .. لذا فنحن نعدها صحراءنا الصغيرة التي لم تُعمَّر حتى اليوم بترتيب من الأقدار لأجل بحثنا هذا .

وقفتُ منصتا وقد ضاع كل أثر للنوم من عيني وأنا أعتقد أنني أمام بعض المهابيل الذين لا مجال لإرجائهم عن عزمهم، وبرغم ذلك سألتهم :

- هل يعلم أصحاب الأرض بفعلتكم هذه ؟

ابتسم الذي يحدثني وهو يجيب :

- أنا ابن صاحب الأرض .

تركتهم وقد ازداد إيماني بأن المخابيل لا يكونون من الشباب وحدهم في كثير من الأحيان .

دخلتُ منزلي ومارست طقوسي اليومية بعد أن تأكدت من ابتعاد النوم عني وسط كل هذا الضجيج ، ثم خرجتُ إلى الشرفة من جديد لأتابعهم وأنا أحتسي كوبا من الشاي .

قطعة أرض فضاء في (طنطا)* وسط مبان كثيرة من كل اتجاه، بقيَتْ عبر الزمن جرداء حتى يأتي هؤلاء الشبان ليبحثوا في بطنها عن تابوت فرعوني قديم.. يبدو أن الأمور ستكون مسلية حقا .

سعلتُ ثم عطستُ بعد انتهائي من العَشاء وأدركتُ أنني على مشارف نوبة برد ، ومع ذلك قررت إطلاق نظرة من الشرفة على موقع الحفر رغم برودة الجو، فوجدتُ الآلات والمعدات ساكنة يتيمة دون وجود لأي من الشبان المتوهجين.. فتنبأتُ بأن نهار الغد سيكون مقلقا أيضا، ولكنني وقتها سأكون في العمل .

عدتُ من عملي ووقفتُ أشاهد عُمال الحفر وشخصا يرتدي خوذة صفراء لم يكن بالأمس معهم، ثم بحثتُ بعينيّ عن

الشاب الذي حاورته من قبل حتى وجدته ، وانتظرت حتى يراني فأشير إليه كي يقبل ناحيتي .. أقبل فسألته :

- ما الأخبار ؟ متى تنتهون ؟

- اليوم أو غدا على أقصى تقدير ، البشائر طيبة .

- عظيم عظيم .

كان متفائلا وكنت فضوليا.. هل بالفعل سيجدون مومياء أحد الفراعين في هذا المكان ؟ لا أعرف كثيرا عن تاريخ الفراعنة ، ولكن معرفتي القليلة تفيد بأنهم كانوا مقيمين بالدلتا في أحد العصور ، ولكن هل في ذات المنطقة الموجودة بها (طنطا) الآن؟.. عجباً لهؤلاء الفراعنة لن يكفوا عن إثارة دهشتنا بعلومهم وأسرارهم أبدًا !!.

لم أتمكن من النوم جيدا طيلة الليل.. الأنفلونزا من جانب وصوت آلات الحفر من جانب آخر ، يبدو أنهم قرروا إنهاء الأمر سريعا .. دائما متعجلون هؤلاء الشباب .. تلفعتُ جيدا بشال ، وخرجتُ إلى الشرفة لأجد أضواء مبهرة تسهّل لهم عملية الحفر بعد منتصف الليل ، وصاحب الخوذة لا يزال بينهم يشير ويصيح ويتحرك كثيرا ، بينما يجمع أحدهم بعض أتربة من التي تخرجها آلة الحفر ويذهب بها إلى شخص انتقى ركنا بمصباح صغير، أفترض أنه يقوم بتحليل العيّنات .

غفوتُ وأظنني لن أتمكن من الذهاب إلى عملي في الصباح بعد كل هذا السهر ومعاناة المرض ، ثم استيقظتُ فزعا علـــى جمهرة تصيح في الشارع (خلاص – بح).. (خلاص – بح).

تركتُ دفء السرير وتناسيت مرضي مسرعا إلى النافـــذة لأشاهد ما يحدث بالأسفل، وبالفعل كان أناس كثيرون يرفعون أذرعهم اليمنى عاليا هاتفين (خلاص – بـــح).. انتقلـــتُ إلى الشرفة لأنظر أمر الحفر ، فوجدتُ الآلات تحاول شق طريـــق بين هذا التجمهر لتخرج من الحي كله ، وتابوت ذهبي يلمـــع تحت الشمس وقد تزحزح غطاؤه قليلاً، لم أتبين وجود مومياء بداخله من عدمه ، لكن لا يوجد أحد من شباب كلية الآثـــار في مكان الحفر.. ربما هم في المسيرة أو ابتعـــدوا عـــن الحـــي بدورهم .

الناس كثيرون حقاً معظمهم من الشباب المتجهم ، ولكنني تبينت أطفالا أخذوا الأمر على أنه شيء مسل، وكذا ســـيدات من فئات اجتماعية مختلفة.. عدت إلى النافذة مـــرة أخـــرى ، فوجدتُ كاميرات تليفزيونية تصور الحدث من شرفات العمائر المجاورة، ذهبت لتشغيل التليفزيون والبحث بين القنوات عـــن صور هؤلاء الناس بالأسفل، حتى وجدت واحدة.

" ..... وبينما ألقت الشرطة القبض على الطلاب المسئولين عن الحفر وكذا المهندس الذي أشرف على هذه العملية بمدينـــة

(طنطا) في جمهورية مصر العربية .. كان بيانٌ يـــوزع بـــين الناس يهدف إلى زعزعة أمن واستقرار هذه الدولة، فحْـــواه أن الفراعنة قد تركوا نقشا على تابوت أحد آلهتهم وهو إله الذل (خلاص – بح) يحذرون فيه كل من يزعج الإله ويتسبب في مضايقته أن تصيبه لعنة الذل إلى الأبد .. وكانت فقـــرات في المنشور توضح ما يتسبب في إزعاج الإله المزعوم، منها علـــى سبيل المثال :

١- عدم الإخلاص للفرعون الأعظم .

٢- عدم الإخلاص لـــ (طيبة) الأم .

٣- خيانة إله الحب .

٤- خيانة إله الأصدقاء .

٥- .... " .

تجاهلتُ الباقي وحوّلتُ المؤشر إلى قناة أخرى، فوجـــدتهم يستعرضون فيها تاريخ (طنطا) وموقعها الجغرافي وأهـــم مـــا تشتهر به .. ثم حوّلته إلى قناة ثالثة لأحد أغـــان مـــصورة.. ثم أفلام أجنبية .. وبرنامج علمي ، والحياة لا تزال مستمرة علـــى كل الفضائيات .

* مدينة بوسط دلتا جمهورية مصر العربية .

استحضار

أظلمتُ المكان .. أوقدتُ شمعتين .. كنت قــد جهــزتُ أصدافاً ثلاثة، وقوقعة.. كيلو من السكّر.. مــصحفا وأوراق فارغة.. أتممتُ كل الطقوس، والقُلـُـنسوة على رأسي، بدأتُ النداء بصوت مبحوح :

– بحق الأرض والسماوات ، وما مضى وما هو آت .. بحق الموت والحياة، والشر والنجاة.. احضر آمنا يا كــبير الجــن ، أستفتيك في أمر مهم .

وصلني الصوت الخافت البعيد يقول بعمق :

– أنت لا تساوى كيلو السكر الذي أمامك ، فبــأي حق تستدعيني ؟!

قرقعة

أنا .. لا أحد يشبهني .

" يا لي من متواضع " .

*

أحرقتُ جلده بسيجاري الفاخر .

" في الواقع ، لم أر من هو أكثر مني رحمة " .

*

من فضلك .. اعترف .

" مهذب جدا .. أنا " .

*

صرخاته العالية آلمت أذني ، أما يستحق أن نمزق له أحبالــه الصوتية ؟

هذا ما يدعونه بـــ (قرصة ودن) .

الغرفة الضيقة عازلة للصوت .. في قبو منزل قديم ، بحيّ شعبي .. لو ساءت الأمور وانكشف الأمر ، سنخلي المنطقة .. من جثث السكان .

*

بطيء فهمه .. بعض الكهرباء تفتّح الذهن .

*

سئمت طول الوقت ، والنتيجة ذاكرة مشوشة وجلد محترق وأعصاب مكهربة .. وحنجرة فارغة.

" يا للملل " .

*

" يا لي من صبور " .

*

أعدتُ ربط حذائي ، وأطلقت رصاصة على الساق .. فقط.

*

أكرر ..

" يا لي من رحيم " .

سكر لا يذوب

لم يكن الحصول على منصب وزيـــر بتلـــك الـــسهولة.. فالكفاءة وحدها لا تكفي ، ولابد من بعـــض التوابـــل الـــتي تسهـــّل عملية ترشيحك كوزير حتى يتم انتقاءك وزيراً ، ولم تكن هذه مشكلة أبداً، ولكن أن تصاب بنوبة فرح غـــامرة .. هنا نبدأ بالتحدث عن المشاكل حقاً .

في الماضي السحيق كنت أفضّل إذابة مقدار ثلاثة ملاعق من السكر في كوب الشاي ، أما بعد ذلك فلم تكفِ هذه الكمية لجعله حلواً ، فكنت أضع مقدار خمس ملاعق لأصل إلى نصف ما اعتدته سابقاً .. أما بعد أن أصـــبحتُ وزيـــراً ، فمقـــدار ملعقتين فقط يجعل طعم الشاي عسلاً ، فليتني كنت وزيراً منذ الأزل .

بدأتْ مشاكل القلب ، ربما لتقدم العمر أو للشعور بثقـــل المسئولية على كاهلي ، المهم أن السادة الـــزملاء القـــدامى في الوزارات طمأنوني أيما اطمئنان، وكأنهم جميعاً أطباء .

تم ترحيلي سراً إلى جهة لا أستطيع ذكرها للدواعي السرية ، حيث قاموا باللازم مع قلبي وأعادوني مرة أخـــرى ، ســـليماً معافى كأن لم يمسسني ضُــر .

في الواقع أن كل الأمراض تقريباً لها علاج نهائي .. لقد تقدم الطب كثيراً ، وغيْر الطب أيضاً ، المهم أنهم توصلوا إلى حل لكل مشكلة ، ولكن لم يئنِ الأوان بعد لكشف كل الأوراق ، فهناك أمور اقتصادية تحتم هذا التكتم .

ليس من حقي حتى تدوين يومياتي .. فهناك محرمـــات على كل وزير يجب تفاديها مهما كانت الظروف وتحـــت أي ضغط ، ولكنني واقع تحت وطأة ضغوط لا أستطيع تحملـــها في صمت ، أنا لم أُخلق لأكون وزيراً بهذا الشكل.. ولكن لابـــد من الفضفضة ولو مع الورق ، سأمزق كل الورق أولاً بأول .. فلا داعي لكل هذا التوتر الذي أشعر به .

أن تكون وزيراً ليس بمجرد منصب رفيع المستوى ، بل الأمر أكثر تعقيداً من الظهور على شاشات التليفزيون والإدلاء بتصريحات في الجرائد ، هناك أمور تتكـــشف بعـــد توليـــك المنصب، وهناك عناصر تتناوب إعطاءك محاضرات في (كيف تكون وزيراً) .. محاضرات تحوي أشياء هامة جداً ، وخطـــيرة

للغاية، وعلى درجة عالية من السرية ، ولكن مهمــا كانــت درجة الخطورة الكلامية والتعامل السري والتمويهات ، فليس الأمر بدرجة رؤية كل شيء على أرض الواقع .. فهناك أشياء لا تصلح كلمة (خطيرة) للتعبير عنها بصدق على الإطلاق .

على مستوى العالم هناك أماكن توجـــد علاجـاً لكــل مرض، وأماكن تنتج أمراضاً تنشرها لتــسوّق لهــا علاجــاً.. وأماكن تفتعل مشاكل بين دول أو جهات عظمى لتصنع لهــم أسلحة.. هل تعلمون موضوع إسرائيل وفلسطين ؟ هل تعلمون عن حركات التمرد في أمريكا اللاتينية وإفريقيا ؟ حسناً هــذه أمور لا أتمكن من ذكرها حتى على الورق .

هل تعلمون أين يجربون الأسلحة الجديدة ؟ لن يصوبوا على غزال يعدو في الغابة فيكونوا بهذا قد جربوا سلاحاً عابراً للقارات ، ولكن السودان والعراق ... أ.. أ .. يبــدو أنــني أتحدث أكثر من اللازم ، وفي هذا خطر على لــساني ، وربمــا على حياتي نفسها .

بعد هذا تظنون أن الوزير الفلاني أو الوزير الترتــاني ليس ناجحاً فليستقيل ، وكأن الأمر بإرادتــه .. إن دخــول الوزارة ليس كالخروج منها على الإطلاق يا السادة .

هل ذكرتُ لكم موضوع (ثقب الأوزون) ؟ حسناً أنتم أكثر رقياً في التفكير من تصديق هذا الهراء، إنما بعض شركات المبيدات الحشرية أطلقت الإشاعة لبيع منتجاتها الـ (صديقة للبيئة) .. أُفصح عن هذا الآن لأن العالم كله يعرفه ما عداكم.. فلتكونوا مع الركب إذاً بهذه المعلومة القديمة.

(نظرية المؤامرة) !! .. لا توجد مثل هذه الأمور على الإطلاق ، لا مؤامرات لأية أغراض دينية أو سياسية ، كل ما في الأمر هو النفع الاقتصادي .. لا توجد في حياتنا تصرفات أو تطورات طبيعية لأية أمور كما قد يبدو لنا، بل يخضع الأمر كله لقوى اقتصادية هائلة لا قِبل لنا بها .. فقط نتبع ونطيع وإلا... !

ربما لا يصدق بعضكم هذا ، ولكن هل تصدق يا هذا الذي لا تصدق ما أقول؛ أنه في ظل كل التقدم الموجود يكون متوسط عمر أي جهاز إلكتروني ما بين ١٠ وخمسة عشر عاماً فقط ؟ إنهم لقادرون على صناعة أشياء تحيى لمئات الأعوام ، ولكن في هذه الحالة لن يتمكنوا من تسويق قطع غيار ، ولن يشتري المستهلك جديداً من نفس السلعة .

هل تعلم أن الصينيين واليابانيين في منازلهم لا يملكون سوى النموذج الأول للتليفزيون والراديو ؟ ربما الثاني على الأكثر ؟

معذرة ، موعد محاضرة الوزراء الأسبوعية .. وعليّ تمزيـــق هذه الورقة الآن .

المحتويات

كتبت هذه المجموعة بين (٢٠٠٥ – ٢٠٠٧ م)

صدر للكاتب :

وطاويط	مجموعة قصصية ٢٠٠٤
خيــول	مجموعة قصصية ٢٠٠٧

للتواصل:

AHMAD5ALIL @ HOTMAIL.COM

http://mahadath.blogspot.com